التعليم الديني بين ثقافة المكون واستيعاب المتلقي

بقلم د/ الجيلالي سلطاني

جاءت الكتب السماوية كلها لتعرف الناس بربهم ، وتنظم لهم شؤون حياتهم، وتبين لهم طريق أمنهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وتخرجهم من ظلمات الجهل والضلالة إلى نور العلم والهداية[1]، ولذلك فلا عجب إذا كانت أول آيات نزل بها الروح الأمين على سيد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم « **اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** » سورة العلق 1- 9.

وفي القرآن الكريم نجد الكثير من الآيات تنعى على الجهل وأهله ، ومن ذلك قوله تعالى : « **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** » سورة المائدة:104 وقوله « **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** » الزمر : 9 ، وقوله أيضا : ((**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان**)) سورة الرحمن :33 ، وغيرها من الآيات التي حث فيها الله سبحانه وتعالى بل أمر فيها بالعلم والتعلم ومعرفة القراءة والكتابة ، لينشر بها العلم بين الناس أجمعين ، وبالعلم

قرر القرآن أن الله سبحانه وتعالى ميز آدم على الملائكة ، وأن العلم بدأ مع الدين ومع بداية الإنسان ، قال تعالى « **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** » سورة البقرة :32-31.

وكان موضوع التعليم قد شغل بال الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بداية نزول الوحي حيث كان يحرص على تلقين الصحابة ما يترل به جبريل من آيات الذكر الحكيم حتى يتم حفظها وتبليغها سليمة. كما كان يسند مهمة تعليم المسلمين إلى أسرى الحرب مقابل عتقهم وحريتهم ، جاعلا إياه محط نظره ومحور اهتمامه ، ولأهميته وجدواه ، كان صلى الله عليه وسلم يأمر بتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، و لم يكد القرن الثاني الهجري يطلع ، حتى كان ثمة جهاز تربوي متغلغل في كل ناحية من نواحي المجتمع الإسلامي ، ابتداء من الكتاتيب التي تعلم الأطفال والصبيان، إلى المدارس العليا التي تعلم الكبار ، فاهتم أصحابه بموضوع العلم والتعليم شكلا ومضمونا ، فعنوا بدراسة أحوال المعلمين والمتعلمين ، وركزوا تفكيرهم على طرائق التربية والتعليم والبحث على أنجع المناهج وعم هذا الحرص كامل البلاد الإسلامية ، وألفوا في ذلك المؤلفات وصنفوا الكتب[(2)].

والمسلمون إذ حرصوا منذ فجر الإسلام وعصورهم المزدهرة على التعليم، فذلك راجع لكونهم اعتبروه جهازا اجتماعيا يعبر عن فلسفة واتجاه عقدي يحدد مقومات المجتمع ويعطيه ركائز أبعاده الفكرية وفلسفته الدينية . من هاهنا يحق لنا أن نتساءل عن مرجعية التعليم الديني ، هل هي معبرة – فعلا – عن الهدف المنشود؟، بحيث يتخرج الطالب من معاهدنا أو كلياتنا سوي التربية والسلوك ، ملما بما أعطي له من معارف ، متشبعا بروح الإسلام ؟ أو بعبارة أخرى ما هي

المكونات الثقافية للأستاذ في العملية التلقينية والتعليمية ؟ فهل يشترط في مـــدرس العلوم الدينية أن يكون كسلفنا من العلماء موسوعيا مقرئا لكتـــاب الله حافظـــا للحديث فقيها أصوليا متكلما بصيرا باللغة مطلعا على التـــاريخ والآداب ...؟ أم يشترط فيه أن تكون ثقافته موسوعية عبر التخصص ؟ .

والحق إذا كان السلف من علمائنا لا يفرقون بين العلوم الشرعية والعلـــوم الأخرى ، فذلك راجع لكون الفاعلية الحضارية كانت تمزج النظري بـــالعملي ، ليمثل الأول روح الثاني يضاف إلى ذلك أن ظروف العصر ومتطلبات الحياة الثقافية لمجتمعهم كانت تفرض عليهم التفقه في كل علم من العلوم ، والإلمام بكل فن مـــن الفنون ، وإن حواضر الثقافة كالربط والمساجد والجوامع وغيرها ، وما كان فيـــها من حلقات التدريس والتعليم ، وما جرى فيها من جدل ونقاش ، تعطي صـــورة واضحة عن ثقافة المدرس الموسوعية ، والتي كانت تمنحه لقب الأستاذ أو الشـــيخ، والشواهد على ذلك كثيرة ، وهي مثبتة في كتب السير والتراجم والأعلام .

وليس معنى هذا ، أننا لا نقول بموسوعية ثقافة المدرس في التعليم الديـــني في وقتنا الحاضر ، ولكننا نقول بثقافة موسوعية عبر التخصص ، حيث يتطلب التقـــدم الرأسي في العلم التخصص الدقيق ، وتركيز الفكر والخبرة في اتجاه معرفي محـــدد، حتى يمكن الوصول إلى شيء جديد ، ذلك أن التخصص هو أن يتبنى المـــدرس أو المثقف معرفة مدققة في موضوع ما مكتفيا بالمعرفة العامة في باقي الموضوعـــات، وهذا التدقيق يجعله يعرف عددا مترابطا وقليلا من التكوينات بمستوى أفضل مقارنة بباقي التكوينات[(3)] .

والمتخصص من هذا النوع كما يقول الدكتور مختار بدر ، هـــو إنســـان خاص، إنه ذلك الباحث الذي يستطيع أن يوسع معرفته كما وكيفـــا [(4)]، إنـــه

يعرف عددا كبيرا من التكوينات مع دقة عالية ، .. فهو يستفيد من سعة معارفه والعدد الكبير من الأسس التي يعرفها في خدمة تخصصه والتقدم فيه ، كما يستفيد من تقدمه الرأسي في تخصصه في مراجعة أسس عمله الذي تخصص فيه، وتطوير تلك الأسس والأصول بما يمثل إضافات حقيقية للمعرفة ((5))، وهو تخصص معرفي نبه إليه ابن خلدون في فصل (في وجه الصواب في تعلم العلوم وطريق إفادته) فقال : ((إن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق ، حتى يستولي على غايات العلم ..((6)) ، وفي قول ابن خلدون إشارة إلى أهمية الملكة العلمية أو التخصص في علم من العلوم ، ذلك أن التمكن أو التبرز في أي علم من العلوم يؤهل صاحبه بداهة إلى الاطلاع على المعارف الأخرى التي يمكن لها أن تؤثر في ملكته أو في تخصصه ، أو يمكن للتخصص أن يؤثر فيها ، وبذلك يتحصل على نوعين من المعارف ، معارف خاصة ومعارف عامة ، تشكل في الأخير شخصيته الثقافية التي تعرفه بنفسه وتعطيه الكفاءة العلمية سواء من حيث الإبداع والتجديد في التخصص أو من حيث المهارة والقدرة في العملية التربوية والتلقينية .

وينبغي لنا أن نتساءل عن هذه المعرفة أو هذه الثقافة المضافة إلى ثقافته الموسوعية في التخصص ، فهل يحكم تخصصه الديني ، لا يلتفت إلا للثقافة الإسلامية وأصول العلوم الشرعية – دون سواها –مكتفيا بها محصورا فيها ، مقتنعا بمذهب القائلين بالعلم الذي ينفع أم أنه ينفتح على التيارات الفكرية والثقافات العالمية ؟ .

مما لا يحتاج إلى بيان ، أن تراثنا الإسلامي له أهمية بالغة إذا أحسن استغلاله، إذ أنه يكون سببا في تفادي إعادة الأخطاء وتكرارها ، ويكون في الوقت نفسه

درعا واقيا لكل ما يمس شخصيتنا الإسلامية سواء ما تعلق منها - خاصة - بالجانب العقدي أو الخلقي أو الثقافي .. ، فالاستفادة من الثقافة الإسلامية والإلمام بأصول العلوم الشرعية ، « تمثل البنية المعرفية العميقة بالنسبة لكل العلوم عندنا ، وبإمكانها أن ترشد حركة المعرفة ، وتحدد أهدافها ، وأن تشكل مرجعا تأصيليا بالنسبة لها »[7].

ولا يقصد بالتأصيل المعرفي في التكوين العلمي والثقافي للمدرس أو المهتم بحقل العلوم الدينية، الانغلاق والتقوقع ، أو عدم الانفتاح أمام التيارات الفكرية والثقافات العالمية، خصوصا في ميادين الفكر والتربية والاجتماع والتاريخ، فذلك فهم خاطىء واتجاه مغلوط تبنته فئة ، أضفت على هذا الفهم صفة الإلزام والدوام والقداسة ، وقسمت العلوم إلى علمين : علم ينفع وعلم لا ينفع ثم راحت تدعو إلى الاقتصار على ما أسمته بالعلم الذي ينفع وإلى عدم النظر في أي مما أدرجته تحت العلم الذي لا ينفع وهي ظاهرة حذر منها ومن أخطارها عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين قال :(إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية »[8]) ، وقد تناول هذا بالشرح الدقيق شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : (من عرف الشر وذاقه ثم عرف الخير وذاقه فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما كما ذاقهما. بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر ، فإما أن يقع فيه . وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه ...»[9]) .

وإذا كان انفتاح المتخصص على الثقافات العالمية والتيارات الحديثة أمرا لا بد منه ، فينبغي أن يكون انفتاحا قائما على فرز المبادئ والاتجاهات التي تتعارض مع التصور الإسلامي ، أما العناصر الأخرى التي لا تتعارض مع هذا التصور فيمكن

الاستفادة والاستعانة بها، ومن ثم تمكن مهمة المربي والمكون من حيث ربط العناصر الوافدة مع العناصر الأصيلة ، وإدماجها جميعا في تخصصه المعـــرفي أو في معجمـــه الثقافي ((10)). وبعبارة أخرى فإن الاطلاع على أفكار الآخرين وثقافتهم يؤهلنا لأن نقف على منابع التأثيرات العالمية وما فيها من جوانب إيجابية وأخرى سلبية الأمـــر الذي يمكننا من تقدير موافق الآخرين وكيفية التعامل معهم((11)).

والحق إذا كان إعداد المتخصصين والمكونين في العلوم الدينية إعدادا مبنيا علـى التبرز في مجال التخصص ، موسعا بالمعارف وأصول الثقافة الإسلامية ، منفتحا على الثقافة الإنسانية ، فهل يكفي هذا الإعداد في العملية التربوية والتلقينية ، مـــن دون أن نضع في حسباننا المقومات الأساسية لثقافة المكون التي تســـــاعده في إيصـــال معلوماته ومعارفه إلى المتلقي؟ وبصيغة أخرى ، كيف يصل بثقافته إلى ذهن المتلقـــي بوصفه مربيا ومدرسا للعلوم الدينية؟ .

إن الذي يتصدر لتدريس العلوم الدينية ينبغي أن يدرك تمام الإدراك أهميـــة الرسالة التي يقوم بأدائها ، وأحسب العقيدة هي الأســـاس ، بوصفـــها القـــاعدة الأساسية في حياة المسلمين وعليها تبنى الأفكار والمفاهيم بـــل تمنحـــها قوامـــها واتجاهها، وفي هذا دلالة على أن نقاء العقيدة وصفاءها سبيل لصفـــــاء الأفكـــار واستقامتها .والعقيدة ــ بإطلاق ــ هي أقوى العوامل الفاعلة في إحداث ما تتمـــيز به الثقافة من مظاهر التنوع والتعدد والاختلاف ، بل عي علة الصراع الحضـــاري الأبدي الإنساني ... والعقيدة مبدأ راسخ في النفس ، متغلغل في الوجدان ، قـــابل للمشاركة الواسعة ، يشمل الفرد والجماعة من الناس ويسهم في توجيه ســـلوكهم العام ((12)) .

ولاعتبار العقيدة ركيزة أساسية في الحياة الفكريـــة والثقافيـــة والتثقيفيـــة خصوصا إذا تعلق الأمر في توجيه السلوك التربوي والتعليمي ، فإن مدرس العلـــوم الدينية يمارس عملا مقدسا يحاسبه عليه الله .

والكلام على العقيدة في هذا الاتجاه سبيل إلى الحديث عن الصفات الخلقيـــة لمدرس الدين في كلياتنا ومؤسساتنا الإسلامية ، فهو يعيش مع مجتمـــع طلابـــه ، ويلقنهم ما أتيح له من معرفة وثقافة ، فيلتقي بهم في موعد محاضراته ودروســـه ، ويتجمعون حوله سواء داخل القسم وخارجه ، وأعينهم معقودة بعينه، يـــترقبون أقواله وأفعاله وحركاته وسلوكاته وكثيرا ما يحاكون هذه الأقوال وهذه الأفعـــال والحركات والسلوكات ، ولعلهم في ذلك يتشربون أخلاقه وطباعـــه . وهـــم إذ يتلقون ذلك كله من مدرسهم ومكونهم ، فذلك راجع لكونه في نظرهـــم المثـــل والقدوة .

وظاهرة التأثر بالمربي ، ظاهرة تنبه إليها أولوا الأمر منذ القدم، وهي معروفة ومدونة في كتب آداب المعلم والمتعلمين ، ومما ورد في هذا الباب على سبيل المثـــال لا الحصر ما جاء في وصية عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده، وقوله لـــه (ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينـــك، والحسن عندهم ما استحسنت ، والقبح عندهم ما استقبحت «[13]»)، ومن ذلـــك أيضا كلام الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في هذا الشأن : (من نصـــب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبـــل لسانه . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهـــم بلســـانه فحسب «[14]»). لذلك يستوجب على مدرس الدين في مؤسساتنا العلمية أن يتخلق

بالأخلاق الطيبة والصفات الحميدة ، ليكون القدوة لطلابه، فيمتمنون أن يكونـوه أو يفوقوه، وهم في ذلك متأثرون به من حيث لا يشعرون .

وصفوة القول، فإن بالثقافة المتنوعة في تخصص مدرس العلـوم الدينيـة، وبمنهجه القائم على الثقافة العقدية الصافية والتحلي بالفضيلة والأخلاق الحميـدة، لأقدر على تبليغ رسالته التربوية والتعليمية التي هي صنو رسالة الأمة في الحياة .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

1 ـ ينظر أحمد حلاوة ، القراءة وتراثنا الإسلامي ص 59 – 60 ،مقال منشور في مجلة الوعي الإسلامي ، العدد 242 صفر 1405هـ الموافق لـ أكتوبر 1984م ، الكويت ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية .

2 ـ ينظر د . نور الدين صغير ، النظريات التربوية وطريقة التدريس عند ابن سحنون ص 213 ـ 216 ، مقال منشور ضمن ملتقى الإمام سحنون ، القيروان ، مركزالدراسات الإسلامية : 7 ـ 8 ـ 9 جمادي الثانية 1412 هـ ، 13 ـ 14 ـ 15 ديسمبر1994 م .

3 ـ ينظر أ . د . عبد الكريم بكار ، مدخل إلى التنمية المتكاملة ((رؤية إسلامية)) ، ص 131 ، دمشق ، دار العلم ، ط1 1420 هـ / 1999 م .

4 ـ د.مختار بدر ، المدرك والغامض ، ص 122 ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1995 م.

5 ـ أ . د . عبد الكريم بكار ، مدخل إلى التنمية المتكاملة ، ص 132 .

6 ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ج 2 ص 132 ، تونس ، الدار التونسية للنشر ـ الدار العربية للكتاب .

7 ـ أ . د . عبد الكريم بكار ، مدخل إلى التنمية المتكاملة ، ص 132 .

8 ـ ابن تيمية ، الفتاوى ، علم السلوك ، ج 10 ص 300 .

9 ـ المصدر نفسه ، ج 10 ص 300 ، وينظر د . ماجد عرسان الكيلاني ، تطور مفهور النظرية التربوية ، المدينة المنورة ، دار التراث الثانية ، ط2 1407 هـ / 1987 م .

10 ـ ينظرعبد الرحمان صالح عبد الله ، دراسات في الفكر التربوي الإسلامي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، دار النشر والتوزيع ، ط1 1408 هـ / 1988 م .

11 ـ د . ماجد عرسان الكيلاني ، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ، ص 257 .

12 ـ محمد العربي الخطابي ، القيم الإنسانية واختلاف الثقافات ، ص 10 ـ 11 ، مقال منشور بمجلة الفيصل،

العدد 205 ، الرياض ، رجب 1414 هـ (ديسمبر ـ يناير) 1993 ـ 1994 م .

13 ـ ينظر محمد صالح سمك ، فن التدريس للتربية الدينية ، ص 58 ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1997م.

14 ـ ينظر المرجع نفسه ص 58 .